

تثبيت أهل الحديث بالسنغال

بقلم: أبي عبد الرحمن محمد بن علي السنغالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر ولا تعسر، واهد قلبي إلى التي هي أتقى وأبر، وأطلق لساني على الحق،
وصرف قلبي على الصدق، واكس لفظي بهاء البيان، وعش منطقي جمال البلاغة،
وبلغني مرادي من نصرّة أوليائك، والنفاح عن صالح عبادك، أولئك الذين قاموا لك،
وأطاعوك، وصدقوا نبيك، وصبروا على الجهاد فيك. فاتصرهم يا رب- ولا تنصر
عليهم، وامكز لهم ولا تمكز عليهم، وأعن ولا تعن عليهم.

هذا الآن الجزء الثاني من رسالة "تثبيت أهل الحديث" من إخواننا السلفيين في بلاد السنغال،
جرّدت فيه الكلام على ما يتصل بأمر الشيخ عبيد الجابري، والتكشّف عن سبب القطيعة التي
حدثت بينه وبين الشيخ يحيى حتى تكلم كل منهما على الآخر.

وقد كان الشيخ عبيد عند شيخنا محترماً مكرّماً، وكان ينزله منزلة الوالد، ويرى له حقّ التقدّم
في السنّ، ويؤفّي إليه حرمة العلم. فمضت سنون والأمر على الخير والصلة والأخوة.

فإذا -إذن- قد جرى حتى بتر حبل الصلة، وكسر بين الشيخين قيد العداة. فما من بُدّ أن ذنباً
أُحْدِثَ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَأَنْ ظُلِّمَ جَرَى إِمَا مِنْ هَذَا وَإِمَا مِنْ هَذَا. والحجة على ذلك ما قاله رسول
الله صلى الله عليه وسلم: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا بَدَنِبٍ يُجْدِنُهُ
أَحَدُهُمَا... " رواه أحمد، وهو حسنٌ.

فهلمّوا -الآن- إلى الفحص والتكشّف حتى نُخْرِجَ غَامِضَ هَذَا الْأَمْرِ، وخفيّ هذا الباب،
ومستور هذا الشأن، ومُعَيَّبَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ. ولنتذكر جميعاً قول ربنا تعالى فيما تقدّم فيه إلى عباده

المؤمنين بلزوم العدل في الحكم والشهادة، والحذر من الضلع⁽¹⁾ مع أحد من الناس لأي معنى من المعاني التي ربما عطفَت القلوب على الضلع أو أدركته رقة بسببها. وقول ربنا هو: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا". وليس وراء هذه الآية في الإيعاز إلى لزوم المعدلة والنصفة مذهب.

ثم إن علمنا الطريق إلى الحق تبعناه وأخذنا به، فإن الحق عطف، والباطل عنوف عسوف. وإذا تلجج في صدوركم بعض الشك مما أحصله عليكم، أو سرى إليها باعث ربيّة مما أثبتّه، فنبهوني عليه بكتاب منكم، أو ردّوه عليّ بمكشوف الحجة والبرهان الذي عندكم.

وقد أدزت الكلام على سياسة وتدبير عسى أن لا أعرج فيها على بعض القول الذي كان يجب أن أعرج عليه، وأفيض فيه، وأتبسط إليه. إلا أني أتدارك ذلك إن شاء الله بكتاب الشيخ عبد الحميد الحجوري الذي لقبه "عون الباري ببيان سيرة حزبية ابني مرعي" أبعث به مع هذا الجزء -إن شاء الله-، وعساني أنقلب إليكم منتصف هذه السنة إن كتب الله لي حجة فيها، ولحين اللقاء نبين لكم بالكلم ما لا يُحتمل بيانه بالقلم، إلا أني عجلت كتبي إليكم اتقاء لشبهة عسى أن تبث بينكم فتأخذ في النفوس أخذها. وبالله التوفيق.

وبعد، فقد جرى فيما سمعت أن الشيخ عبيداً كان قدّم اليمن في عام 1927 على طريق الزيارة، وأعرض عن استضافته شيوخ اليمن المشهورون كلهم، لأنهم كانوا سيئي الظنّ فيه... حتى قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب الوصّابي: "إنه ما قصدنا إلا لأمر سوء"، فلم

¹ وهو الميل...

يَتَقَبَّلُهُ مِنْهُمْ إِلَّا شَيْخَنَا، فَأَنْزَلَهُ مُنْزَلاً كَرِيماً، وَقَامَ لَهُ بِأَحْسَنِ بَرٍّ وَأَتَمِّ إِحْسَانٍ. إِلَّا أَنَّ الشَّيْخَ يَحْيَى -كَمَا قَدْ عَلِمْتُمْ- لَا يَكْتُمُ أَحَدًا النَّصِيحَةَ، وَلَا يُغْضِي عَنْ الْخَطِيئَةِ تُؤْتِي مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ. فذَاكَرَ الشَّيْخَ عبيداً فِي فَتْوَى لَهُ فِي الْإِنْتِخَابَاتِ خَالَفَ فِيهَا الدَّلِيلَ، وَمَا عَلَيْهِ شَيْوْخُ الْحَدِيثِ، فَقَالَ لَهُ شَيْخُنَا: "لَوْ تَرَاجَعَ عَنْهَا -يَا شَيْخَ عبيد-، فَقَالَ هُوَ: "إِنْ شَاءَ اللَّهُ سَأَنْظُرُ".

وَالظَّنُّ عِنْدِي قَوِيٌّ أَنَّ الشَّيْخَ عبيداً أَلَمَ ذَلِكَ وَأَمْضَى، وَأَدْغَلَ صَدْرَهُ، وَوَسَّسَ ضَمِيرَهُ، لَا سِيَّما إِلَى مَا يَسْمَعُهُ مِنَ الْوُشَاةِ الشَّائِنِينَ أَنَّ الشَّيْخَ يَحْيَى مُتَعَنِّتٌ، وَكَثِيرُ الْإِسْتِقْصَاءِ عَلَى النَّاسِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ النَّصِيحَةَ، وَلَا يَرِيدُونَ إِلَّا الْمَعَاشِرَةَ عَلَى الدَّخَنِ، وَالتَّغَاضِيِ عَنِ الْمُنْكَرِ. وَالنَّصِيحَةُ -كَمَا قِيلَ- مَحَاطَةٌ بِالتَّهْمَةِ، وَليْسَتْ إِلَّا لِمَنْ قَبْلَهَا، وَليْسَ عَلَى كُلِّ ذِي نَصْحٍ إِلَّا الْجُهْدُ، وَمَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنْ نَصِحَائِهِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ لَمْ يَحْمَدْ غِبُّ رَأْيِهِ، وَأَكْثَرَ مَا يَوْجَدُ تَرْكُ قَبُولِ النَّصِيحَةِ مِنَ الْمَعْجَبِ بِرَأْيِهِ".

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ عَبَّرَ مَا شَاءَ اللَّهُ مِنَ الْوَقْتِ وَالشَّيْخَ عبيدَ يَتَبَحَّثُ الطَّرِيقَ الَّتِي يَتَأَدَّى مِنْهَا إِلَى النَّيْلِ مِنَ الشَّيْخِ يَحْيَى... فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى وَقَعَتْ إِلَيْهِ مَسْأَلَتَانِ⁽²⁾ حَسِبَ أَنَّهُ يُمْكِنُهُ أَنْ يَعْتَصِمَ دُونَهُمَا، وَيَجْعَلُ لِسَهْمِهِ غَرَضاً مِنْهُمَا، فَأَخَذَ يَسُوقُهُمَا مَسَاقاً لَا يُشْبِهُ خَيْمَ الْعُلَمَاءِ وَلَا أَدَبَ الْفُقَهَاءِ، فَانظُرُوا -الآن- كيف ذا!!!

ذَلِكَ أَنَّ قَوْلَ الرَّجُلِ يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ عَلَى قَدْرِهِ عَالِياً وَنَازِلاً، عَالِماً أَوْ جَاهِلاً، كَبِيراً أَوْ صَغِيراً، وَهَاتَانِ الْمَسْأَلَتَانِ اللَّتَانِ أَقَامَ لِهِنَّ الشَّيْخُ الدُّنْيَا، وَهَزَّ بِهِمَا مَنَاكِبَ الْأَرْضِ، وَدَوَّمَ عَلَيْهُمَا بِأَهْلِهَا لَا

² هُمَا مَسْأَلَةُ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ، وَمَا تُقَوْلُ فِيهَا عَلَى الشَّيْخِ يَحْيَى أَنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا حَزْبِيَّةٌ، وَالْأُخْرَى هِيَ كَلِمَةٌ جَرَتْ عَلَى لِسَانِهِ يَوْمًا، وَهِيَ قَوْلُهُ: "إِنَّ أَهْلَ السَّنَةِ أَقْرَبَ الطَّوَائِفِ إِلَى الْحَقِّ"، فَظَنَّ بَعْضُ الضَّعَفَاءِ أَنَّهَا سَقَطَةٌ لَا يُقَالُ صَاحِبُهَا، فَحَمَلُواهَا إِلَى الشَّيْخِ عبيدِ، فَزَادَ هُوَ فِي طِينِهَا بِلَّةً، وَفِي عَوْجِهَا كَسْرَةً. وَالْحَقُّ أَنَّ لَا عَيْبَ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ، وَلَا تَضْيِيقَ سَعَةِ اللَّغَةِ عَنْ احْتِمَالِهَا، فَهِيَ تُخْرَجُ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: "اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الشَّيْوْخِ رُبَّمَا خَطَأَ عَلَى مَزَاجِ وَالسَّابِقِ إِلَى الْقَلْبِ مِنَ الظَّنُونِ لَا عَلَى أَسْصَلِ صَحِيحٍ !!

تتحمل أبداً ذلك البرق والرعد، إلا أن المكاشح متى أعوزه الظفر بالعيب صار إلى أشياء يمكنه أن يُغالط بها، ويصوّرُها في صورة العيوب القبيحة بما يُمثِّي أمرها في الضعفاء والمتصفحين.

وحين تَأدَّى إلى الشيخ عبيد تلك الكلمة التي يقول فيها الشيخ يحيى : "إن أهل السنة أقرب الطوائف إلى الحق" قطعَ عليها -أعني الشيخ عبيدا- بالظن الضعيف أنها باطلة، ثم مرَّ في الحكم عليها بتشحنٍ مُفرطٍ قائلًا: "كلامك هذا باطل بدلالة الكتاب والسنة والإجماع... فقد افتريت على أهل السنة..... وناقضت نفسك بنفسك..... ولو قلتُ أنا محدثكم ما قاله هذا القائل لكنتُ حقيقًا بأن أوصف أي مبتدع..... أهل السنة هم أهل الحق، أهل السنة هم خاصة الله من عباده، وخاصة رسوله صلى الله عليه وسلم، فكيف يوصفون بأنهم أقرب الطوائف إلى الحق. إذن هم ليسوا على الحق المحض، بناء على هذه المقولة الفاجرة الفاسدة، هم ليسوا على الحق المحض، بل هم على باطل، لكنهم قرييون من أهل الحق، فعرفنا يا مسكين! مَنْ هم الطائفة الذين هم على الحق المحض، أظنه لا يدري ما يخرج من رأسه، فمثل هذا والله وبالله وتالله لا يجوز أخذ العلم عنه، لأنه يدخل على مَنْ يعلمهم الباطل والزور والكذب والبهتان..... إلى آخر كلامه.

وما أعجبه من تحامل، وأظرفه من نقدٍ على الهاجس. يقول: "كلامك هذا باطل بدلالة الكتاب والسنة والإجماع" فيا أيها العلماء ومعشر الفقهاء ألا تعجبون!! ألا تضحكون!! فإلى مَنْ نشكو هذا؟ ولأمرٍ ما كانت العربُ تكني العجلة -أمّ الندامة-. قالوا: لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويحب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويقطع قبل أن يقدر، ويحمد قبل أن يجرب، ويدم قبل أن يجرب، ولن يصحب هذه الصفة أحدٌ إلا صحب الندامة واعتزل السلامة.

وَبَعْدُ، فَلَوْ أَنَّ الشَّيْخَ عبيداً -أصلحه الله- احتاط لنفسه، وقال على وجه الاستكفاف والحدَر: "إن الأولى أن يقال كذا"، "وإن الأشبه أن يُعَبَّرَ على نحو كذا" لكان أجدَر أن يَهَبَ اللهُ تعالى له السلامة، وكان أشبه بوقار العلم، وأدخَلَ في باب الحِلْمِ، وأدَلَّ على يَقَظَةِ القلبِ، وأعذر له عند أولي الفِطَنِ، وأسهَلَ عليهم في التماس المخرج له عند تَمَحُّضِ المسألة عن خلاف ما ذَهَبَ إليه وتوَهَّمها عليه.

ولم نَرِ في العلم مثل الاحتياط، والمثل السائر في قول عمر بن عبد العزيز -رحمه الله-: "ما أُقِرَّنَ شَيْءٌ أَفْضَلَ من عِلْمٍ إلى حِلْمٍ" وليس يكون الرجل حليماً وإفراً مصيباً في أكثر رأيه حتى يدَعِ الاسترسال مع سلطان الطيش، ودافع الغضب، وحتى يجعل لسانه من وراء قلبه، فإذا أراد أن يتكلم تفكَّرَ؛ فإنك لا تزال تملك الكلمة ما لم تكلم بها، فإذا تكلمت بها صارت هي التي تملكك. ولربَّ كلمة صرَّ بها على صاحبها رجلُ الغراب⁽³⁾، وأوقعتُه في ضيق وشدة. ولذلك كان المسدَّد في قوله لا يكون إلا مسدَّداً في فعله؛ وإذا اختلَّ على المرء تدبيرُ لسانه، اختلَّ معه تدبيرُ جميع جوارحه. ورحم الله امرأً تكلم بعلم أو سكت بحلم، وصان نفسه عن التكلف لما لا تُحسِن.

امرؤُ تَرَكَ ما غَمَّ عليه عِلْمُهُ إلى ما كُشِفَتْ له معرفتُهُ، وبُسِطَتْ إليه حَقِيقَتُهُ. امرؤُ نَطَقَ لِيَغْنَمَ أو صَمَتَ لِيَسْلَمَ. امرؤُ أتى إلى الناس ما يُحِبُّ أن يُؤْتى إليه. امرؤُ قَدَعَ⁽⁴⁾ نفسه وضيَّقَ عليها طريقَ

³ مثل لمن وقع في ضيق وشدة، انظره في أساس البلاغة.

⁴ أي كَفَّها... وهذا الأسلوب الذي تراه الآن حدونه على خطبة للحجاج بن يوسف، وكان الحجاج على جبروته وعُتُوهِ بليغاً لساناً مَفُوهاً، حتى قال الأصمعي: أربعة لم يَلْحَنوا في جدِّ ولا هزل؛ الشعبي، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القريية، والحجاج أفصحهم. صعد الحجاج يوماً المنبر فخطب وقال: امرؤ حاسب نفسه امرؤ راقب ربه امرؤ زور عمله امرؤ فكر فيما يقرؤه غدا في صحيفته ويراه في ميزانه امرؤ كان عند همه امرأ وعند هواه زاجرا امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جملة فإن قاده إلى حق تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفه إننا والله ما خلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء وإنما ننقل من دار إلى دار...

الهوى، ونازعها إلى التي هي أحسن من القول وأبر من الفعل. امرؤ لیس الناس بأحسن ظنّه، وأجمل أدبیه، وأوسع خلقه. امرؤ مثل لنفسه مثال ما استحسن من غيره فعول به، ومثال ما استبح من غيره فاجتنبه. فهذه حروف قليلة من الوعظ والاعتبار لم نقصدها قصداً ولكن القلم سأل إليها استطراداً، والشيء يُذكر بالشيء.

أما بعد، فما أنكره الشيخ عبيد واستشنعهُ من كلام شيخنا، وادّعى أن كتاب الله يُبطله أمرٌ قد خلص جوارزه وصحّته إلى أهل العلم. ولا تدفعه سعة اللغة، ولا يضيق عن احتماله متصرف هذا اللسان، بل بمثله قد جاء الكتاب، ونطقت السنة؛ حيث قوله تعالى: "إعدلوا هو أقرب للتقوى..." فالعدل - لا محالة - تقوى وإيمان وبرٌّ محض خالص في نفسه، إلا أنك إذا وقفت مع ظاهر اللفظ ههنا، وبست دون ما إليه التأويل بقيت مصروفاً عن القصد، محجوباً عليك الوجه. فافهم - وتفهم - سعة هذا اللسان، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفريقها.

والأشبه أن الشيخ عبيدا لا يخفى عليه مثل هذا، فيقوى في النفس أنه أراد أن يجعل المسألة سترًا على أمرٍ يريدُه، ويتخذها حجاباً دون أربٍ يسره. وإن لم يكن صرح بذلك المستكن قولاً، فقد نطق به على أصرح ما يكون فعلاً وتصرفاً، فالله المستعان...

هذا، ولم يزل شيخنا يتحامله، ويسلّك في مدافعتِهِ سَمَتَ اللّيان^(٥)، ويُغضي الجفنَ على القذى، ويجرّ الذيلَ على الأذى حتى ترادفت عليه أعماله، وأتى بما تبرك له الإبل، فسبّ وشمّ^(٦)، وأقذع في القول، وألبّ ونادى بالمستحيل^(٧)، وعند ذلك فاض من شيخنا صجره،

⁵ أي باللين والرفق...
⁶ أما سبّه وشمّه ففي شريط نُشرَ عنه من بعد، يقول فيه: إن الحجوري سفيه... قليل الحياء... لا يتكلم بنفس أهل العلم إنما يتكلم بنفس أهل السفاهة والوقاحة...

وَأَسْتَفْرِغَ صَبْرَهُ، وَعَزَبَ عَنْهُ حِلْمُهُ... وَمَنْ لَمْ يَغْضَبْ لَمْ يُعْرِفْ حِلْمَهُ، وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ حَلَّمَ
أَمْسَكَ، فَقَدْ يَسْتَجْهَلُ الْحَلِيمَ حِينَ يَسْتَخِفُّهُ الْهَجْرُ... وَالْحِكْمَةُ الْقَدِيمَةُ تَقُولُ: "إِنَّ الضَّرْسَ
الْمَتَّكِلَ لَا يَزَالُ صَاحِبُهُ مِنْهُ فِي أَلْمٍ وَأَذَى حَتَّى يُفَارِقَهُ. وَالطَّعَامَ الَّذِي قَدْ عَفَنَ فِي الْبَطْنِ الرَّاحَةَ فِي
قَدْفِهِ، وَالْعَدُوَّ الْمَخُوفَ دَوَاؤُهُ قَتْلُهُ". هُنَالِكَ لَفَظُوهُ، وَقَلُّوا حَدَّ غَضَبِهِ الْمُتَزَايِدِ، وَكَسَرُوا سُلْطَانَ
غَيْظِهِ الْمُتَفَاحِشِ، وَهِيَ هِيَ الْيَوْمَ قَدْ تَرَكَوه سَبِيلًا تَتَعَاوَرُهُ الْأَقْدَامُ حَتَّى رَدَّتْهُ إِلَى الْإِيْنِ مِنْ خَمِيلَةٍ.

فَانظُرُوا الْآنَ -إِخْوَانِي- بَعْضِيونَ مُنْصَفَةً، وَقُلُوبٌ وَاعِيَةٌ فِيهَا حُصِّلَ عَلَيْكُمْ، أَيُّ الرَّجَلِينَ كَانَ
لأَخِيهِ ظَالِمًا؟، وَأَيُّهَا كَانَ مِنْ أَخِيهِ مَظْلُومًا؟، ثُمَّ خَذُوا فِيهَا بِأَدَبِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ- وَهُوَ قَوْلُهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: " أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا؛ قَالُوا: يَا رَسُولَ
اللَّهِ! هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ". وَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ.

ثُمَّ نَسْأَلُ مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ كَيْفَ يَتَّجِهُهُ أَنْ يَقَالَ: "إِنَّ الْحَجُورِيَّ يَطْعَنُ فِي الْعُلَمَاءِ... وَإِنَّ الْحَجُورِيَّ
حَدَادِي... وَإِنَّ الْحَجُورِيَّ كَيْتَ وَكَيْتَ!! أَوْ هُمْ فِي ذَلِكَ بُرْهَانٌ وَاضِحٌ، أَوْ دَلِيلٌ كَافٍ، أَوْ شَاهِدٌ
بَيِّنٌ فَيُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ؟ أَمْ أَنَّهُمْ أَهْلُ شُبُهَاتٍ وَمَرَاوِغَةٍ يَرِيدُونَ أَنْ يَأْخُذُوا النَّاسَ
بِالْعَمَى؟ فَهَيْهَاتَ، قَدْ فَضَحَ الصُّبْحُ فَحْمَةَ الدُّجَى، وَبَهَرَتِ الشَّمْسُ مَوَاقِعَ الظُّلْمِ وَدَيُّجُورَ الشُّبُهَةِ.

وَأِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَيْنَ الْحَدَادِيَّةِ، وَعَرَفْنَا أَيْنَ السَّفَاهَةِ، وَأَيْنَ الظُّلْمِ وَالظَّالِمُونَ... لِأَنَّ مَكَانَهَا
مَشْهُورٌ، وَمَوْضِعُهَا مَعْرُوفٌ غَيْرٌ مَجْهُولٌ. فَجَانِبُوا -يَا قَوْمَ- اللَّبْسَ وَالتَّلْبِيسَ، وَلَا تَرْكَبُوا الْبِنْيَانَ

7 وأما تأليبيه وندائه بالمستحيل فقوله في نفس الشريط: " فإني أوجه نصيحة لأربع فئات من الناس: الفئة الأولى: مَنْ
في مركز دماغ نصيحتي لهم أن يغادروه وأن يلتحقوا بالمراكز الأخرى المنتشرة في اليمن... حراسه أنصحهم أن
يلقوا السلاح وأن يرفعوا أيديهم عن هذا الرجل، فإنهم بالتفافهم حوله يعينونه على ما هو فيه من سفاهة ووقاحة...
وأهل وادعة أنصحهم أن يرفعوا الأمر إلى ولاية الأمور ليخرجوا هذا الرجل عن المركز... فئة الوافدين إلى اليمن...
أنصحهم أن لا يفدوا على مركز دماغ وحاله هي هي حتى يقصى عنه الحجوري...

وتتركوا الجَدَدَ ومَحَجَّةَ الطريق... ولا تُخَادِعُوا أَنْفُسَكُمْ بالتَّوَقُّعِ بالرجال في التماسِ مثالبِهِم بِالْحَيْلِ، فكل ذلك أَوْضَحُ عندنا من وَضَحِ الصُّبْحِ.

فيا أيها الجارحون الطاعنون!! والماتنون المسرفون!! بالبينة العادلة نُطالِبُ، وعن الحُجَّةِ الظَاهِرَةِ نَسْأَلُ. وإلا فأنتم المتَّهَمُونَ عندنا، والأُطْنَاءُ لدينا، والرَّادُّونَ النَّاسَ عن أنسِ الجماعةِ إلى وَحْشَةِ الفرقة، وأنتم المُمَهَّدُونَ سبيلَ الخِلافِ والشَّقَاقِ، والمُطَلِّقُونَ عِنانَ الفِتْنَةِ، والكاسِرُونَ قَيْدَ الغِلِّ، والفاثِحُونَ بابَ الإغراءِ، "...اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ".

أما تلك الشُّبُهَاتُ التي يُعَالِنُ بها الضعفاءُ منكم، وَيَتعلَّقُ عليها الأُدعياءُ الدخلاءُ المجهولون فيكم، مِنْ مُحَرِّفَةِ الكَلِمِ عن مواضعِهِ، والمُؤوِّلَةِ للخبرِ إلى أسوأِ محامِلِهِ، مع كلِّ ما يَحْمِلُونَهُ على شيخنا من التَّكْذُوبَاتِ، ويُزَوِّرونَهُ عليه من بُهتِ الكلامِ، مرَّةً يقولون: "إنه يَقْدَحُ في نُبوَّةِ الإسلامِ"، ومرَّةً يقولون: "إنه يطعن في صَحْبِ رسولِ الله -صلى الله عليه وسلم-" وسوى ذلك مما يَصْطَنَعُونَهُ لِيَفْتِنُوا أَهْلَ العَفْلَةِ والجاهلين بالأمرِ، فسَنفَرُغُ -إن شاء الله- لكلِّ ذلك، وسنكشِفُ عن موضِعِ العورةِ فيه، ونهتِكُ حجابَ الشُّبُهَةِ عنه. و"يَضْرِبُ اللهُ الحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ...".

فصل

وههنا مشايخ آخرون، أوتوا من قِبَلِ الوُشَاةِ الَّذِينَ اخْتَدَعُوهُمْ بِالْأَبَاطِيلِ المَمُوهَةِ، والشُّبُهَاتِ المَزُورَةِ حتى استزَلُّوهم عن حَدِّ الحَزْمِ، وأخرجوهم من حُسْنِ الرَّأْيِ فِي إِخْوَانِهِمْ، وشَغَلُوهم عما هو أَرْدُّ عَلَيْهِمْ، فلم يزلوا بهم حتى تركوا ما فِيهِ حَظُّهُمْ من تركِ التَّعَرُّضِ لِمَا أَغْنَاهُم اللهُ عَنِ التَّعَرُّضِ لَهُ من بعثِ راقِدِ الشَّحْنَاءِ وإِحْيَاءِ مَيِّتِ البَغْضَاءِ. على أَنَّ اللّائِمَةَ مَقْسُومَةٌ بَيْنَ كُلِّ مِنَ الوُشَاةِ وَمَنْ يَعْمَلُ عَلَى قَوْلِ الوُشَاةِ، لِأَنَّ مِنْ شَأْنِ الصَّالِحِ البَرِّ، وَالطَّاهِرِ الجَيِّبِ، وَالسَّلِيمِ الصِّدْرِ أَنْ لَا يَجُولَ عَنِ حُسْنِ ظَنِّهِ فِي إِخْوَانِهِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى مَا لَا سَبِيلَ إِلَى الشُّكِّ فِيهِ، "وَلَا يَدَعُ مَا يَعْلَمُ بِمَا يَسْمَعُ، وَلَا يَكُونُ غَيْرُهُ فِيْمَا يُبَلِّغُهُ أَوْثَقَ مِنْ نَفْسِهِ فِيْمَا تَعْرِفُهُ"، فَإِنَّ ذَلِكَ أَزِينُ فِي العَاجِلِ وَأَحَقُّ بِالمُثَبِّةِ فِي الآجِلِ.

أفَمَا نَالَ الآنَ أَنْ يَعْلَمُوا -وَهُمْ لِأَنَّ يَعْلَمُوا أَهْلٌ- بِأَنَّ هَذِهِ الدَّعْوَةَ الَّتِي نَنَافِخُ عَنْهَا اليَوْمَ، وَنَجْهَدُ عَلَى إِمَاطَةِ الظَّنِّ المَعْلَقَةِ بِهَا، وَحِرَاسَةِ مَا يُضَيِّعُهُ أَهْلُ الغَفْلَةِ مِنْهَا قَدْ ظَهَرَتْ -وَاللهُ الحَمْدُ- بِرِكَتِهَا، وَغَنَاؤِهَا العَظِيمِ، وَكِفَايَتِهَا التَّامَّةِ، وَمَنْفَعَتِهَا الجَلِيلَةِ حَتَّى صَارَتْ كَمَا قَالَ القَائِلُ:

نِعْمَةٌ كَالشَّمْسِ لَمَّا طَلَعَتْ بَثَّتِ الإِشْرَاقَ فِي كُلِّ بَلَدٍ

وَيَعْلَمُوا أَنَّ التَّحْيِيفَ لَهَا، وَالمَرَاوِغَةَ عَلَى تَهْجِينِ حَالِهَا وَإِصْغَارِ أَمْرِهَا جَهْلُ بِقَدْرِ النِّعْمَةِ، وَإِضَاعَةٌ لِلحِظِّ الأَعْلَى وَدُخُولٌ فِيْمَا يُزْرِي بِالعَقْلِ وَالدِّينِ.

وإذا كان ذلك كذلك فهل يكون أضعف رأياً، وأبعد من حسنِ النَّظَرِ وأدَلَّ على قِلَّةِ الشكرِ أَنْ يَتَهَاوَنَ بها هؤلاء الذين قد وَكَّلَهُمُ اللهُ بها(٨)، وقد تَهَدَّلَتْ لهم ثِيَارُهَا، وَعَطَفَتْ عَلَيْهِمْ قُطُوفُهَا، ثم هم يَرْجُونَ عليها من كرامة الله ما قد رأوا بَعْضاً وَيَنْتَظِرُونَ بَعْضاً.

وَنَجْعَلُكُمْ عَلَى أَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ شَيْخَنَا شَدِيدُ السَّخَاءِ بِنَفْسِهِ عَنِ كُلِّ مَا يُقَالُ فِيهِ وَيُنَالُ بِهِ مِنْ عَرَضِهِ مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى حِسَابِ الدَّعْوَةِ وَلَا يَعُودُ عَلَيْهَا بِالْمُضْرَةِ. فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ لَا يَسَعُ السُّكُوتَ عَنْهُ، وَلَا يُمَكِّنُ غَضُّ الطَّرْفِ مِنْهُ أَوْ الْمَلَايِنَةُ فِيهِ، وَلَا -وَاللَّهِ- لَوْ فَعَلَ لَوْجَدْتُمْ رِجَالَ السَّنَةِ هَهُنَا غَيْرَ فَاعِلِينَ. رِجَالٌ شَدِيدٌ غَيْرَتُهُمْ عَلَى الدَّعْوَةِ، كَثِيرٌ اتَّقَاؤُهُمُ الشَّوْهَةَ أَنْ تُلَمَّ بِهَا، كَبِيرٌ شَفَقَتُهُمْ مِنَ الْإِحْدَاثِ فِيهَا. فَافْهَمُوا هَذَا -فَهَمَّكُمْ اللهُ-.

وأنا ما أستدلُّ على نجابة هذه العصابة وإخلاصها ووفائها وعزَّة نفوسها، وشرفِ هميتها وطبيعتها بمثل ما أرى من شِدَّةِ مُحَامَاتِهَا عَنِ ذِمَارِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، وَفَرَطِ تَعْظِيمِهَا لَهَا، وَبَذْلِ نَفُوسِهَا دُونَهَا، وَإِشْفَاقِهَا مِنْ كُلِّ خَلَلٍ وَنَقْصٍ يَدْخُلُ عَلَيْهَا، وَصَبْرِهَا عَلَى الْجُوعِ، وَسَهْرِ اللَّيَالِي وَأَلْوَانِ الْأَلَامِ، وَكَثِيرٍ مِمَّا قَدْ يَصُدُّ غَيْرَهُمْ مِنْ أَجْلِهَا. فَلَيْسَ يُعْظَمُ الْحَقُّ إِلَّا كَبِيرُ الْقَدْرِ، نَبِيلُ الشَّانِ، عَظِيمُ الْخَطَرِ.

فيا أهل هذه الدعوة شُدُّوا مِنْ عَزِيمَتِكُمْ فِي الدَّفَاعِ عَنْهَا، وَشَمِّرُوا لِذَلِكَ بِجِدِّ، وَتَعَاوَنُوا عَلَيْهِ بِأَقْصَى الْجُهْدِ، وَلَا تَدْعُوا وَجْهًا مِنَ الْعِنَايَةِ بِهَا وَالْحَدَبِ عَلَيْهَا إِلَّا بَلَّغْتُمُوهُ فِيهَا. فَكَمَا أَنَّ الْأَيَّامَ لَا تَزِيدُكُمْ إِلَّا الرَّفْعَةَ وَالْقَدَرَ فِي قُلُوبِ الْأُمَّةِ وَالصَّيْتِ الْبَعِيدِ، فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُ أَهْلَ الْحَسَدِ لَكُمْ إِلَّا قَلَقًا وَانزِعَاجًا، وَإِلَّا بَرَمًا وَإِحْرَاجًا حَتَّى يَكِيدُواكُمْ كَيْدَهُمْ كُلَّهُ فَكُونُوا عَلَى حَذَرٍ.

8 أعني الشيخ يحيى وسائر تلامذة الإمام مقبل

واعلموا أن الحزَمَ الجامع لشتات أمركم، اللامَ لشعثِ حالِككم، الفالَ لحدِّ عدوِّكم، الكافَ لغَرْبِ الماكرِ بكم هو أن تصدُّقوا الله، وتُصحِّحوا النيَّةَ في العملِ له، وتترتادوا من وجوه البرِّ أَرْضاها له وأزكاها عنده. وأن تكونوا لضعفة المسلمين من الأعراب والذَّراري والجهَّال وأهل الغفلة عن دين الله حيثُ النَّفعُ العظيم من تعليم، وبذل معروف، وتمخيض النَّصح، ونشر السنة والتوحيد فيهم. وأن تُحبِّبوا إليهم دين الله، وتُرغِّبواهم في الثواب الأكبر والفلاح الأعظم.

وتوسَّلوا -إن شاء الله- إلى ذلك بحُسنِ الخُلُق، وكريمِ الأدب، ولينِ العريكة. وقد قال الله لنبيه: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ..." فإنكم إن وفَّيتم هذا الشرط، وكنتم عند هذا الحقِّ، فأملوا وبشِّروا بالرِّفعة والتمكين، وبولاية الله والدُّخول في كرامته، واستتمام نِعَمته، وزيادة بركته، وتنزُّل رحمته وسكينته. -جعلكم الله لذلك أهلاً-... آمين.

فبالجملة، فلا يَرِينَّ أحدٌ أنه إن تعرَّض لهذه الدعوة بالسوء يَهِنُ له ذلك، بلى فَمَنْ يَفْعَلُ وَيَسْتَهْدِفُ لها يَسْتَوْبِلُ وخيمَ جناية التهجُّم. فإنه مَعْدِرَةٌ إلى الله وإلى مَنْ يَرْجِعُ إلى الفتوة والمروءة؛ فما حُفِظَ كُلُّ نَفْسٍ بِمِثْلِ الْقَلْبِ الذِّكِيِّ وَالْأَنْفِ الْحَمِيِّ. كما قال:

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً مجتنبك المظالمُ

وأنتم تتسالون عن عِلَّةِ ما حَمَلَ شيخنا على الكلام في كلِّ من الشيخ محمد بن هادي المدخلي وعبد الله البخاري، وما ذا دعاه إليه، وأيش حَرَكَه عليه. فأقول: إنه لو شاء الشيخان لكفَّا عن أنفسهما ذلك، ولم يُحرِّكا شيخنا إليه، وذلك بالسكوتِ عنه وتركِ التعرُّض لما تعرَّضا له مما تبيَّنَّا

فيه ضياع الحزْمِ وسوء الاختيار. وهما اللذان بدءًا بالنبيل من هذه الدعوة والطعن في رجالها، والتَّحْيِيفَ لأهلها، والبادئ -على كل حال- أظلم، واللَّوْمُ على مَنْ أخرجَ ضَبَّ الصدورِ من وِجَارِها أثبت، والعتاب إلى مَنْ هَيَّجَ الصَّعْبَةَ من الإبل حتى أوجَعَ مِرَاسُها أسرع وبه أولى. فأَنْصِفُوا -يا قومي- والله يُحِبُّ الْمُنْصِفِينَ، واعدلوا هو أقرب للتَّقْوَى.

ولَمْ يَزَلْ شيخنا عنها ساكِنًا، ولهما مُحْتَرِمًا، وإلى ما اختاراه من الموقف في هذه الفتنة مُسَلِّمًا. حتى هَجَمَا على ما هجما عليه من الطعن في هذه الدعوة، والتحذير من هذه الدار، والمراوغة إلى تهجين سلوك أهلها.

ففي يوم كذا بَلَّغْنَا عن الدكتور عبد الله البخاري مقالةً رَكِبَ فيها ثَبَجَ الظُّلْمِ، وجاءت منه قوَارِصُ لا تُحْتَمَلُ، وألوانٌ لا تُطَاقُ. إذ يقول فيها: "ثقوا بأن هؤلاء سيذهبون كلهم في زبالة التاريخ... "الكذب والفجور الذي يأتون به أو يقولونه وينشرونه عن الإخوان... " "... لا تشتغلوا بهؤلاء السفهاء... " ..أيش دماج؟! ماذا فيها ماذا فيها يعني؟! كل من جاءها أو لا مرَّ عليها صار سُنِيًّا سلفيًّا! في عهد مقبل ما كانت كذلك! تكون في عهدنا هذا كذلك... " "... نعم قلنا إذا جاءنا رجلٌ في أيام الشيخ مقبل من دماج نوعاً ما لا نسيء الظن فيه لأننا نعرف موقف الشيخ رحمه الله سابقاً من بلد التوحيد والسنة وبلادنا هذه، صحيح... " "... ومواقفه رحمه الله تلك التي ما كانت تسرُّ سُنِيًّا، وما كان يوافقها عليها أحدٌ من العلماء، لا الشيخ ابن باز ولا ابن العثيمين، ولا ربيع ولا غيرهم، صحيح... " "... سبُّه وشتمه على بلد التوحيد وملك فهد رحمه الله وغيرهم، رجل صالح -أي الشيخ مقبل- تاب قبل أن يموت بشهرين، ولذلك ما كل من جاءنا كان من دماج على أنه سني، كل قد نحن نظن أن الناس هكذا أفكارها: متأثرة

بشيخهم أنهم خوارج في هذا الفكر...". انتهى، وهذا كله من كلامه ذكرتُ منه المقصود المراد، وهو مسجّلٌ بصوته لمن رام أن يسمعه.

فصَحَّ أن البخاري هو الظالم المتحيِّف بما لا يَسْتَطِيع أن يُقيم عليه برهانا صحيحا، ولكن بالضرب بالظنون، والتصرف على التوهم. وقد بالغ -كما ترون- في الخطِّ عن إخوانه، وذهب في ذلك بكلِّ ما يَسَعُهُ الإمكان. وهذا كله من غير فإرطٍ سوءٍ بدَرَ إليه منهم، ولا سابقِ ظلامَةٍ له عليهم. والله المستعان...

فما يَدْفَعُهُ إِذْنُ إِلا الظُّلْمُ السَّحِيقُ، وسوءُ العادة التي تُجْرِي على خِلافِ العدل، وتَحْمِلُ على تركِ الحقِّ. هذا ولا ينتهي بنا العَجَبُ من فُجْحِ ما رمى الشيخ الإمام مُقْبِلًا وَقَرَفَهُ به.

ألا ما أَقَلَّ الحياءَ اليوم، أَلَا تَنْظُرُونَ إِلى هَذَا الشُّنْظِيرِ يَعْمِدُ إِلى شيخ من شيوخ المسلمين، وَيَتَقَصَّدُ ذَلِكَ الطَّوْدَ المنيع والبرَّ النَّزِيه فيقول فيه الذي تسمعون!!

زِهْ! زِهْ! أَيها الرَّجُلُ⁽⁹⁾، قد حَمَلْتَنَا -والله- أمراً ما نحن له بمطيقين، كَوَدِدْتُ أَنك سُخْتٌ في الأَرْضِ ولم تَلْفَظْ بها. أَمُقْبِلًا تُعَيِّرُ؟ فما أَنْتَ مِنْ ضَخَامَةِ أَمْرِهِ إِلا كالحِصَا مِنْ عِظَمِ هَذَا الجَبَلِ، وما أَنْتَ مِنْ مِقْدَارِ وَزْنِهِ إِلا كالرَّيشَةِ مِنْ ثِقَلِ جَنَاحِهَا.

انظُرْ كيف تَخْرُجُ مما قُلْتَهُ، فقد تَرَكْتَ هَذَا النَّاسَ شَافِي القلوب عليك⁽¹⁰⁾، وُغَرَاءَ الصِّدُورِ منك، "فِنِعْمَ البَدِيلُ مِنَ الزَّلَّةِ الاعْتِدَارِ، وبِئْسَ العِوَضُ مِنَ التَّوْبَةِ الإِصْرَارِ"، ودَعَاكَ مما

⁹ زِهْ: بكسر الزاي وقيل بضمها، كلمة تقولها العجم للتعجب، وتقال أيضا لغيظ يلحقك.
¹⁰ أي ماقتين ساخطين...

يَسْتَخِفُّ حِلْمَكَ، وَيَنْقُصُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ حَالَكَ، وَتَشَاغَلُ بِهَا هُوَ أَوْفَقُ لِحَالِكَ وَأَشْبَهُ بِنَجْرِكَ،
وَلَا تَسْتَطِلُّ عَلَى مَنْ لَا تَنَاطِرُهُ فِي الضَّبْطِ وَالِاتِّقَانِ، وَلَا تُشَاكِلُهُ فِي الْوَفُورِ وَالْجَلَالَةِ وَعِظْمَةِ
الشَّانِ. وَلَئِنْ عِشْتُ لِأَكْتَبَنَّ فِي نَشْرِ حَاشِيَةِ مَنَاقِبِهِ مَا يَسُوءُ كُلَّ نَاقِمٍ حَقُودًا، وَكُلَّ سَاخِطٍ حَسُودًا،
وَكَلَّ خَامِلٍ لِلنِّعْمَةِ كَفُورًا.

ودليل واضح على أنه ما تكلم بما تكلم به إلا بدافع الهوى وتحت سلطان الشهوة أنه خاف أن
يُعلّق عنه كلامه، وأمر بكتمايه، والسّتر عليه. ويقول: هذه سجلتموها، سجّلتم هذه
المكالمة؟ يكون بينكم فقط هذا، لا يخرج إلى غيركم... ولا يشاع بارك الله فيكم، ولا يخرج... -
-بارك الله فيكم- لا يخرج شيء من هذا الكلام... فعجباً!! ألا كنت أمسكتها قبل أن تكلم بها،
كأنك قد كنت إليها مكرها ومثلها مضطراً؟ أم وجدت سبّ الأولياء أشفى لدائك، وأبلغ في
شفاء سقمك؟

أمّا الذي أُلحِدَتْ إليه⁽¹¹⁾ من كلام الشيخ في الدولة السعودية فقد عرف الناس وجهه، وتبيّنوا
سبيله، وعلموا-إلا من لا يُحِبُّ أن يَعْلَمَ- بأن الحامل للشيخ عليه لم يكن هوى النفس، ولكن
لظلم لحقه من أولي أمر تلك البلاد مما قد كان الله سائلهم عنه لو أنه لم يجعلهم في حلّ منه. وما
ابن باز وابن عثيمين وربيعة إلا من أهل المودة الصادقة والحبّ الشديد للمُقبِل. والله يرحمهم
جميعاً، ويُحِلُّ بهم رضوانه.

أما بعد، وهذا كلُّه-كما أو مأت إليه سالفاً- من ضرر المرجفين الكذابين، ومن عاقبة الإصغاء
إلى إغراء الأشرار، وإلى تحميل الوُشاة الذين دَلَّسُوا أَنْفُسَهُمْ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ، ثم لا يزالون

¹¹ أي أشرت إليه... كما قال تعالى: لسان الذي يلحدون إليه...

يَتَبَرَّبُصُونَ الْفُرُصَ، وَيَتَحَيَّنُونَ لَهَا، حَتَّى إِذَا نَجَمَ قَرْنُ فَتْنَةٍ، وَصَبَأَ نَابُ شَرِّ قَامُوا فِيهَا يُجْرِكُونَ
السَّاكِنَ، وَيُهَيِّجُونَ الْهَامِدَ، وَيَجْمَعُونَ الْمُتَفَرِّقَ، وَيُفَرِّقُونَ الْمُجْتَمِعَ، وَيَغْدُونَ بِهَا وَيُرْوِحُونَ،
حَتَّى يَنْفَجَّرَ بِالتَّحْرِيشِ يَنْبُوعَ الْخِلَافِ، وَيَسْتَفِيضُ بِالتَّأَلِيبِ بَحْرُ الشَّقَاقِ. فَهَمُ أَوَّلُ هَذَا الْأَمْرِ
وَأَخْرَهُ، وَبَاطِنُهُ وَظَاهِرُهُ، وَعَلَنُهُ وَسِرُّهُ، وَوَزْدُهُ وَصَدْرُهُ، وَقَبْلُهُ وَدُبْرُهُ، وَقَلُّهُ وَكُثْرُهُ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ
وَأَخْزَاهُمْ.

ومن تعليقات شيخنا الحسنة ما قرأته في كتابه الجميل " أضرار الحزبية " قوله -مَتَّعَ اللَّهُ بِهِ-:
مِنَ الْوَسَائِلِ الْخَفِيَّةِ لَضَرْبِ الدَّعْوَةِ السَّلْفِيَّةِ، التَّحْرِيشُ الَّذِي يَقُومُ بِهِ أَضْدَادُ الدَّعْوَةِ السَّلْفِيَّةِ بَيْنَ
حَمَلَةِ الدَّعْوَةِ السَّلْفِيَّةِ، عُلَمَاءَ وَدُعَاةَ، فَيَنْشُرُونَ فِي أَوْسَاطِهِمُ التَّحْرِيشَ، وَلَيْسَ هَذَا بِجَدِيدٍ، وَإِنَّمَا
هُوَ قَدِيمٌ مِنْ زَمَنِ الْإِمَامِ الْبَخَارِيِّ وَشَيْخِهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى الذَّهَلِيِّ، وَمِنْ زَمَنِ الْإِمَامِ مَالِكِ وَابْنِ
إِسْحَاقَ، وَمِنْ زَمَنِ عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْعَظِيمِ وَعَبْدِ الرَّزَاقِ وَأُثْمَةَ مُتَقَدِّمِينَ، وَهَذَا جِهْدُ
الشَّيْطَانِ. اهـ

ومن أحسن ما وَقَعَ إِلَيَّ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى مَا حَكَاهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحَاكِمُ النِّيسَابُورِيُّ فِي الْحِكَايَةِ الَّتِي
جَرَتْ بَيْنَ الْإِمَامِ الْحَافِظِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ خَزِيمَةَ وَبَيْنَ أَصْحَابِهِ، وَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ تَحْمِيلِ
بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ، حَتَّى وَقَعَتْ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ...

قال الحاكم -رحمه الله-: حدثني أبو بكر محمد بن حمدون، وجماعة من مشايخنا - إلا أن ابن
حمدون كان من أعرفهم بهذه الواقعة - قال: لما بلغ أبو بكر بن خزيمة من السنِّ والرئاسة
والتفرد بهما ما بلغ، كان له أصحابٌ صاروا في حياته أنجم الدنيا، مثل أبي علي محمد بن عبد
الوهاب الثقفي، وهو أول من حمل علوم الشافعي، ودقائق ابن سريج إلى خراسان، ومثل أبي

بكر أحمد بن إسحاق - يعني: الصبغي - خليفة ابن خزيمة في الفتوى، وأحسن الجماعة تصنيفاً، وأحسنهم سياسة في مجالس السلاطين، وأبي بكر بن أبي عثمان، وهو آديهم، وأكثرهم جمعاً للعلوم، وأكثرهم رحلة، وشيخ المطوعة والمجاهدين، وأبي محمد يحيى بن منصور، وكان من أكابر البيوتات، وأعرفهم بمذهب ابن خزيمة وأصلحهم للقضاء.

قال: فلما ورد منصور بن يحيى الطوسي نيسابور، وكان يكثر الاختلاف إلى ابن خزيمة للسمع منه - وهو معتزلي - وعان ما عان من الأربعة الذين سميناهم، حسدهم واجتمع مع أبي عبد الرحمن الواعظ القدرى باب معمر في أمورهم غير مرة، فقالوا: هذا إمام لا يُسرَعُ في الكلام، وينهى أصحابه عن التنازع في الكلام وتعليمه، وقد نبغ له أصحاب يخالفونه وهو لا يدري، فإنهم على مذهب الكلاية، فاستحكم طمعها في إيقاع الوحشة بين هؤلاء الأئمة...

قال: فحدثني أبو بكر أحمد بن يحيى المتكلم، قال: لما انصرفنا من الضيافة (ضيافة جمعهم عليها ابن خزيمة) اجتمعنا عند بعض أهل العلم، وجرى ذكر كلام الله: أقديم هو لم يزل، أو نُثِبْتُ عند إخباره تعالى أنه متكلم به؟ فوقع بيننا في ذلك خوض، قال جماعة منا: كلام البارئ قديم لم يزل. وقال جماعة: كلامه قديم غير أنه لا يثبت إلا بإخباره وبكلامه. فبَكَرْتُ إلى أبي علي الثقفي، وأخبرته بما جرى، فقال: مَنْ أنكر أنه لم يزل، فقد اعتقد أنه مُحَدَّث.

وانتشرت هذه المسألة في البلد، وذهب منصور الطوسي في جماعة إلى ابن خزيمة، وأخبروه بذلك، حتى قال منصور: ألم أقل للشيخ: إن هؤلاء يعتقدون مذهب الكلاية؟ وهذا مذهبهم.

قال: فجمع ابن خزيمة أصحابه، وقال: ألم أنهكم غير مرة عن الخوض في الكلام؟ ولم يزداهم على هذا ذلك اليوم.

قال الحاكم: وحدثني عبد الله بن إسحاق الأنطاقي المتكلم، قال: لم يزل الطوسي بأبي بكر بن خزيمة حتى جراه على أصحابه، وكان أبو بكر بن إسحاق، وأبو بكر بن أبي عثمان يردان على أبي بكر ما يمليه، ويحضران مجلس أبي علي الثقفي، فيقرؤون ذلك على الملاء، حتى استحكمت الوحشة.

قال: سمعت أبا سعيد عبد الرحمن بن أحمد المقرئ، سمعت ابن خزيمة يقول: القرآن كلام الله، ووحيه، وتنزيله، غير مخلوق، ومن قال: شيء منه مخلوق، أو يقول: إن القرآن محدث، فهو جهمي، ومن نظر في كتبي، بان له أن الكلابية - لعنهم الله - كذبةٌ فيما يحكون عني بما هو خلاف أصلي وديانتي، قد عرف أهل الشرق والغرب أنه لم يصنف أحد في التوحيد والقدر وأصول العلم مثل تصنيفي، وقد صح عندي أن هؤلاء - الثقفي، والصبغي، ويحيى بن منصور - كذبة، قد كذبوا علي في حياتي، فمحرم على كل مقتبس علم أن يقبل منهم شيئاً يحكونه عني، وابن أبي عثمان أكذبهم عندي، وأقولهم علي ما لم أقله. انتهى

قال أبو عبد الله الذهبي عقب ذكره للقصة في كتاب السير: ما هؤلاء بكذبة، بل أئمة أثبات، وإنما الشيخ تكلم على حسب ما نقل له عنهم. فقبح الله من ينقل البهتان، ومن يمشي بالنميمة. اهـ

فَلْيَأْنَفْ كُلُّ مَنْ يَرْجِعْ إِلَى الْمَحَبَّةِ لِدَعْوَةِ اللَّهِ مِنْ مَلَابَسَةٍ مَا يَقْدَحُ فِي ذَاتِ الْبَيْنِ، وَلْيَسْتَعْمِلُوا مِنْ صِدْقِ التَّمَسُّكِ، وَالْإِنْقِيَادِ لِدَاعِي الْكِتَابِ، وَقُوَّةِ الْإِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، مَا يَرْزُقُ بِهِ اللَّهُ الْأُلْفَةَ الَّتِي بِهَا تَصْلُحُ الْقُلُوبُ، وَتَنْقَى الْجُيُوبُ. وَمَا جَمِيلٌ - وَاللَّهُ - أَنْ يَكُونَ بَعْضُنَا حُسَدَاءَ عَلَى بَعْضٍ.

فَبَقِيَ مِنَ الْقَوْلِ مَا أَنَا مُعَلِّقُهُ - بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي الْجُزْءِ الثَّلَاثِ مِنْ هَذِهِ الرِّسَالَةِ، فَاللَّهُ يُبَلِّغُنَاهُ وَيُنَفِّسُ لَنَا مِنَ الْوَقْتِ مَا يَسَعُ لِتَكْلِيفِهِ وَاسْتِعْمَالِهِ... وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

24\اشوال\1432
2011 \ 09\22م